

الدرس الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .. أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب .

وقول الله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: ١٢٠] .

هذه الترجمة في بيان تحقيق التوحيد ومكانته وعظيم ثوابه وأجره ؛ عقدها الإمام المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بعد أن بيّن مكانة التوحيد وفضله وتكفيره للذنوب ، لما بيّن ذلك عقد هذه الترجمة لبيان مكانة تحقيق التوحيد ، قال : ((باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)) أي ولا عذاب . ومعنى ذلك: أنه يدخلها دخولاً أولاً دخولاً مباشراً دون أن يحاسب ودون أن يعذب ، وهذه رتبة عليّة ومكانة رفيعة يوفّق الله سبحانه وتعالى لها من شاء من عباده .

وتحقيق التوحيد المراد به : تتميمه وتكميله ، وهذا التتميم والتكميل على درجتين : التتميم الواجب والدرجة الثانية التتميم المستحب ، وقُلْ إن شئت درجة المقتصدين ودرجة المقربين ، وكلٌّ من المقتصد والمقرب أو السابق بالخيرات قد حقق التوحيد واستحق دخول الجنة بدون حساب ولا عذاب ، لكن درجة السابق بالخيرات أعلى ومكانته في الجنة أرفع ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتُ مِمَّا عَمِلُوا وَيُوفِّيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] .

وقد قال العلماء رحمهم الله تعالى في بيان حد وضابط التحقيق الواجب الذي هو درجة المقتصدين : هو تصفية التوحيد وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، أما الشرك فالأكبر منه ناقض للتوحيد من أصله ، والأصغر قاذخ في كماله الواجب ، والبدع بنوعيتها القولية والفعلية قاذحة أيضاً في كمال التوحيد الواجب ، وهكذا أيضاً الشأن في كبائر الذنوب والمعاصي لها أثرها على التوحيد .

فتحقيق التوحيد هو: تصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، وهذه الثلاث يسميها أهل العلم «العوائق» ؛ أي التي تعوق السائر إلى الله عز وجل في بلوغه للجنة والفوز برضا الله سبحانه وتعالى ؛ عائق الشرك، وعائق البدعة ، وعائق المعاصي . والخلاص من عائق الشرك: يكون بإخلاص التوحيد لله ، والخلاص من عائق البدعة: يكون بتجريد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلاص من عائق المعاصي: يكون بمجاهدة

النفس على عدم فعلها والمبادرة إلى التوبة عند الوقوع في شيء منها . والعبد لا يسلم من الخطأ لكنه يجاهد نفسه أن لا يقع في المعصية ، وإن وقع في شيء منها بادر وسارع إلى التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، أما أن يكون مصرّاً على المعاصي والآثام فهذا لا شك له أثره على تحقيقه للتوحيد الواجب ، لأن تحقيق التوحيد الواجب يكون بتصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، فمن نقى وصفى توحيده وخلّصه من تلك الشوائب دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، لأن الحساب والعذاب إنما يكون في فعل محرم أو ترك واجب ، وهذا الذي حقق الواجب عليه لم يفعل المحرم ولم يترك الواجب فكان بذلك محققاً للتوحيد التحقيق الواجب .

وأعلى من هذا درجة تحقيقه التحقيق المستحب ، والتحقيق المستحب : هو الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، وهو عبارة عن ميدان للمنافسة والمسابقة للدرجات العلا والمنازل الرفيعة ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْشِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْعَابِرَ فِي الْأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضِلِ مَا بَيْنَهُمْ)) فأهل الجنة في درجات ومتفاضلون ، فالتحقيق المستحب ميدان للمنافسة والمسابقة والفوز بالدرجات العلا في جنات النعيم .

حاصل القول: أن تحقيق التوحيد نوعان أو درجتان : تحقيق واجب ، وتحقيق مستحب ، وكلٌّ من هذين النوعين أو أهل هاتين الدرجتين يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وأمّا من أخلّ بتوحيده إخلالاً لا ينقض أصل التوحيد فهذا أيضاً يدخل الجنة لكنه قد يحاسب ويعذب قبل ذلك ثم يدخل الجنة ، بمعنى أن دخوله الجنة لا يكون دخولاً أولاً .

والله عز وجل ذكر هذه الأقسام الثلاثة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذُكِرَ إِلَهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣] من هم ؟ الثلاثة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي : الثلاثة فالواو في قوله ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ تشمل الظالم لنفسه لأن الله قال: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي هؤلاء . وضدّرت الآية بوصفهم بأنهم عباد الله وأنهم المصطفون ثم ذُكر في الآية التي تليها أنهم في الجنة ، لكن المقتصد والسابق بالخيرات دخولهما للجنة دخولاً أولاً بدون حساب ولا عذاب ، أما الظالم لنفسه فإنه قد يمر بمرحلة عذاب يطهر فيها من ذنوبه ومعاصيه ثم ماله بعد ذلك إلى الجنة .

إذاً هذه الترجمة فيها بيان تحقيق التوحيد الذي يكون به دخول الجنة يوم القيامة دخولاً أولاً بلا حساب ولا عذاب . وأورد الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة آيتين وحديث .

أما الآية الأولى فهي قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] . ذكر هذه الآية رحمه الله في هذا الباب لبيان أن تحقيق التوحيد وتتميمه إنما يكون بالنظر في صفات

وأعمال محققي التوحيد الذين هم قدوة الناس ، قد قال الله عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [المتحة: ٤] فهو أسوة وقدوة ، وهو أمة ، ومن معاني أمة: أي إمام في الخير ؛ بمعنى أن من أراد تحقيق التوحيد فلينظر في صفات وسير وأعمال هؤلاء الأئمة ، ينظر في أوصافهم ، في خصالهم ، في أعمالهم ، فأعمالهم هي تحقيق التوحيد ، والله سبحانه وتعالى في هذه الآية وصف خليل الرحمن عليه السلام بصفات هي تحقيق التوحيد ، ومن عُني بها وعمل على تميمها وتكملها كان بذلك محققاً للتوحيد .

وأعجبني مرةً كلاماً للشيخ رحمه الله وهو يتكلم عن أدلة التوحيد إجمالاً قال : « دل عليه الكتاب والسنة والفطرة والأئمة » وذكر أشياء . قال « والأئمة » ثم بيّن ذلك حيث جرت عادة الناس وكثير منهم في أعمالهم أن يكون له قدوة في عمله وأن يكون مؤتماً بغيره في عمله ، وكم يهلك خلق وأقوام بسبب ائتمامهم بأئمة الضلال ، و«الأئمة» هذه تعتبر حجة عند كثير من الناس يفعل كذا يقول قدوتي فلان ، بقطع النظر عن أي اعتبار هل عند فلان دليل هل عنده حجة هل عنده برهان ؟ لا يلتفت لذلك ؛ ولهذا يوم القيامة يندم من كان بهذه الحال يطيع أهل الضلال تلك الطاعة العمياء ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (٦٧) رَبَّنَا إِنِّهِمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعَنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨] ، عندما يكون بهذه الصفة يطيع الطاعة العمياء ولا يفكر هل عند من يطيعه حجة؟ هل عنده برهان؟ هل ما يقوله قائم على الدليل أو لا؟ هذه تجر الإنسان إلى ويلات ، لكن الاحتجاج بهذا الباب انظر جماله في كلام الشيخ قال : « ودل على التوحيد الأئمة » قال : إذا قيل نستدل بالأئمة قيل: إن إبراهيم أمة وإمام وقدوة للناس ، فإذا أردتم الاحتجاج بالأئمة فهذا إبراهيم خليل الرحمن اتخذه الله خليلاً ، والله قال في القرآن: ﴿ وَمَنْ يُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠] .

فإذاً باب القدوة بابٌ نافع وأيضاً خطير ؛ نافع للعبد غاية النفع إذا وفق في اختيار القدوة والأسوة الذي يسعد بائتمامه به واقتدائه به ، وخطير جدا عندما يكون يقتدي بأقوام لا خلاق لهم ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)) كان يخاف على أمتهم خوفاً عظيماً ؛ قال : ((أخوف ما أخاف)) كان يخاف على أمتهم من الأئمة المضلين خوفاً عظيماً ، لأن خطورتهم على الناس بالغة وضررهم جسيم جداً .

فهذه لفظة عظيمة جداً من الإمام رحمه الله تعالى شيخ الإسلام في هذا الباب العظيم «باب تحقيق التوحيد»؛ ذكر صفات إمام الحنفاء خليل الرحمن الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نأتسي به ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، أمرنا جلّ وعلا أن نأتسي به وحذر من يرغب عن ملته ، وأن كان كذلك فقد حكم على نفسه بالسفه والغي والضلال .

إذاً هذه صفات عظيمة جليلة مباركة لإمام الحنفاء وهي تعني تحقيق التوحيد . ذكر في الآية الكريمة أربع صفات لخليل الرحمن عليه صلوات الله وسلامه :

❖ الصفة الأولى : أنه كان أمة ؛ وهذه الكلمة تعني شيئين متلازمين ، أحدهما منبني على الآخر ومترتب عليه :

○ الأول : اجتمعت فيه صفات الخير ومعاني الفضل ، فهو أمة اجتمعت فيه الصفات الفاضلة والآداب الكاملة والخلق العظيم والعبودية والإخلاص ؛ فهو أمة .

○ والمعنى الثاني وهو مترتب على الأول أنه قدوة ، لا يشاء أحد أن يقتدي به في فضيلة ما إلا ويجده متصفاً بها، ولهذا لا يكون العبد أمةً إلا إذا اجتمعت فيه صفات الخير فكان قدوةً فيها لغيره ، ومنه قول الله سبحانه

في ذكر دعوات عباد الرحمن ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] . قال بعض السلف : «﴿وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي : واجعلنا مؤتمين بالمتقين» ، ظن بعض الناس أن هذا قلب في المعنى وأنه نوع من

الخطأ في الفهم للآية ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في نصيحة له لأحد إخوانه طُبعت بهذا الاسم : «بل هذا من دقة الفهم ؛ لأنه لن يكون إماماً للمتقين بعده إلا إذا ائتم هو بالمتقين قبله» ، فإن لم يَأْتِ بالمتقين قبله

لم يسلك مسلك الصحابة ومن ابتعهم بإحسان لا يمكن أن يكون إماماً للمتقين، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، إذا اتَّبَعَهُمْ بإحسان حقاً وصدقاً

صار إماماً للمتقين . أما شخص لا صلة له بالسلف الصالح رحمهم الله ، والعلاقة بينه وبين السلف منبئة

منفصلة منفصلة ثم يُزعم أو يُزعم أنه إمام !! أي إمامة هذه!! وهو لا صلة له بهدي المتقين قبله ولم يَأْتِ بمن

قبله من المتقين ؟ بل بعض الناس يعادي السلف ويقع في أئمة السلف وله كلام باطل في معاداتهم ويقال عنه

إمام !! أي إمامة هذه في مثل شخص هذه صفته وهذه حاله!! إلا إن كان المراد إمامة في الباطل ، أما إمامة

في الحق والهدى وهو شخص مُنْبَت لا صلة له بسلف الأمة وخيار الأئمة كيف يكون إماماً في الحق والهدى

. إذاً من شروط الإمامة في الدين الائتمام بالمتقين الأولين ، ويأتي في صدر هؤلاء الأنبياء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْبَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] ، وهذا الذي لأجله ساق الإمام رحمه الله تعالى هذه الآية الكريمة قال

﴿إِنِ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ .

❖ الصفة الثانية قال : ﴿قَاتِلَ لِلَّهِ﴾ ؛ والقنوت يعني ملازمة الطاعة ومداومة العبادة مع الخشوع والذل والخضوع

لله تبارك وتعالى . فكان عليه السلام قانتاً : أي مداوماً على الطاعة ملازماً للعبادة محافظاً عليها معتنياً بها خاشعاً خاضعاً متذللاً لله رب العالمين . فهذه الصفة الثانية لمحققي التوحيد .

❖ **الثالثة :** قال ﴿ حَنِيفًا ﴾ ؛ والحنيفية ملة إبراهيم . حنيفًا : أي مائلاً عن الباطل وعن الضلال مقبلاً على الحق والهدى ، فكل باطل وضلال هو مائل عنه متجافٍ عنه مبتعدٌ عنه في جانبٍ بعيدٍ عنه حنيفاً ، وأمور الخير مقبل عليها تمام الإقبال ، حنيفاً : مائلاً عن الشرك والضلال والباطل مقبلاً على الإخلاص والتوحيد والطاعة والعبودية لله سبحانه وتعالى .

❖ **والصفة الرابعة :** ﴿ وَلَكُمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذه أهم الصفات البراءة من الشرك ومن أهله والخلوص منه ومجانبته ومجانبة أهله ، ومن دعاء خليل الرحمن ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥] . فهو عليه السلام وصفه الله بهذه الصفة ﴿ وَلَكُمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قد قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [المتحنة: ٤] ؛ هذه البراءة من الشرك والبراءة من أهله ﴿ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ . وهنا وصفه بقوله ﴿ وَلَكُمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لم يكن منهم فلا يفعل أفعالهم ، ولم يكن منهم فهو متبرئ منهم ؛ ففيه البراءة من الشرك ومن أهله .
فإذاً هذه الآية العظيمة المباركة فيها صفات محققي التوحيد .

وقال : { وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ } [المؤمنون: ٥٩] .

هذه الآية الكريمة فيها كذلك صفة محقق التوحيد ؛ حيث قال الله جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ ، فأعظم صفة يتحلى ويتصف بها محققوا التوحيد البُعد عن الشرك والبراءة منه والبراءة من أهله والبُعد عنه والحذر من الوقوع فيه ؛ فهم لا يشركون بالله ، حذرون من الشرك أشد الحذر مجانبون له أشد المجانبية ، وذلك لما قام في قلوبهم من صدقٍ في الإيمان وإخلاصٍ لله سبحانه وتعالى ومجاهدةٍ للنفس على تحقيق ذلك . وما من شك أن القلب إذا صدق وأخلص ؛ صدق مع الله في إيمانه وتوحيده ، وأخلص لله في عبادته وطاعته ؛ لاشك أن هذا الصدق والإخلاص يثمر صحة العمل والاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى .

فإذاً أعظم صفات محققي التوحيد ما وصفهم الله عز وجل به في هذه الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وعن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير ، فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحُصيب رضي الله عنه أنه قال : « لا رقية إلا من عين أو حُمة » . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((عُرِضَتْ عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم ، فظننتُ أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، فنظرت فإذا سوادٌ عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)) . ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتنون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)) . فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : ((أنت منهم)) ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : ((سبقك بها عكاشة)) .

ثم أورد الإمام رحمه الله تعالى هذا الخبر عن حصين بن عبد الرحمن ، وحصين بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى من أجلّة التابعين والعلماء المحققين وله مكانة في العلم والفضل والأدب ؛ فيروي هذا الخبر ويحكي أيضاً هذا المجلس ، وتأمل يا طالب العلم هذا المجلس المبارك من مجالس التابعين ، انظر كيف يتحاورون ، وكيف يتحدثون ، وكيف يتناقشون في المسائل العلمية ، وانظر أدبهم الرفيع وخلقهم العالي ومعاملتهم الكريمة حتى نتأدب بأدبهم ونتخلّق بأخلاقهم فنسعد كما سعدوا .

يقول حصين بن عبد الرحمن رحمه الله : ((كنت عند سعيد بن جبير)) وسعيد معروفٌ من هو في إمامته وفضله وعلمه رحمه الله تعالى .

((كنت عند سعيد ابن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟)) الكوكب معروف ، وانقضاضه : سقوطه ، والله عز وجل خلق النجوم لثلاث ؛ منها أنها رجوم للشياطين . فكان كوكباً انقض البارحة فسأل سعيد ابن جبير من هو حاضر عنده في المجلس من منكم رأى الكوكب ؟ وهذا فيه اهتمام السلف بهذه الآيات العظيمة واتعاظهم واعتبارهم ، والله جل وعلا يقول : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩] ، فسأل من منكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟

قوله ((البارحة)) هذا يستفاد منه أن المجلس كان بعد الظهر أو بعد العصر لم يكن قبل الظهر ، لأن أهل العلم يقولون ما قبل الزوال يقال «هذه الليلة» ، من رأى الكوكب هذه الليلة ، وبعد الزوال يقال «البارحة» ؛ من برح إذا زال ؛ فهذا يفيد أن المجلس لم يكن في الضحى ولا بعد الفجر ، وإنما كان إما بعد الظهر أو بعد العصر .
((فقلت: أنا)) القائل أنا :هو حصين رحمه الله .

((ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة)) احتراز ؛ من رأى الكوكب البارحة ؟ الكوكب انقضى في الليل ، ومن يكون مستيقظاً في ذلك الوقت في ذلك الزمان لا ينصرف الذهن إلا أنه يصلي ، ولم يكن ذلك الوقت يصلي فاستدرك حتى لا يُظن فيه شيء لم يفعله ، وحتى لا يُحمد بما لم يفعل ، فما كان يصلي ذاك الوقت وإنما كان مستيقظاً لسبب آخر . قال: ((أما إني لم أكن في صلاة)) ، هذه الكلمة قوله «أما إني لم أكن في صلاة» نستفيد منها أنه في ذلك الوقت من كان مستيقظاً لا يذهب الذهن إلا أنه في صلاة ولا ينصرف الذهن إلا أنه في صلاة، لكن في زماننا هذا إذا قال شخص "أني الساعة اثنا عشر رأيت الكوكب" ، الساعة اثنا عشر إلى الآن ما أحد نام كانوا قديماً بعد العشاء مباشرة ينامون ويبادرون إلى النوم ، ولم يكن عندهم هذه الإضاءة الحديثة في البيوت والمساجد والطرق ، حتى النجوم الآن ما نراها داخل المدن ، لأنك أي وقت في الليل تمشي تحت الإضاءة ، في البيت أو في الشارع أو في المسجد أو في العمل كلها إضاءة فالنجوم ما نراها ، حياة مختلفة وأيضاً تغير حتى في الفطرة ، الله جعل النوم سبات وجعل النوم في الليل ، والنهار معاشاً ، لكن هذه تغيرت ، ولم يكن مع هذا التغير ضياع حظ الناس من صلاة الليل بل حتى صلاة الفجر ، حتى صلاة الفجر عند عدد من الناس ضاعت! يسهر في الليل وينام ليس عن صلاة الليل ينام عن صلاة الفجر ، هذه مصيبة عظيمة جداً ابتلي بها كثير من الناس في هذا الزمان . فإذا الاحتراز الذي يحترزه يتناسب مع ذلك الوقت ، لكن الآن لو قال الشخص أنا رأيته ما يحتاج يحترز ، ما يحتاج يقول أما إني لم أكن في صلاة ، لأن الذهن أصلاً ما يذهب إلى ذلك في أمور كثيرة ، ممكن يقول كنت في زواج ، لأن الزواج الآن بعضهم يضع طعام العشاء في الواحدة ليلاً ويحبس الناس إلى الواحدة أو الثانية عشر ليلاً ثم ينصرفون بعد ذلك الوقت ؛ فيُجهز بطريقته هذه على حظهم من صلاة الليل وربما حظهم من صلاة الفجر . فهذه الآن من المصائب والمعضلات التي نعيشها في زماننا هذا .

فأكرم بمثل هذه الحياة يقول: ((أما إني لم أكن في صلاة)) ؛ إذا لم يكن في صلاة ثمة سؤال يطرح نفسه : في ذلك الوقت من الليل وقائم ولم يكن في صلاة ثمة سؤال يطرح نفسه أجاب عنه بدون أن يُسأل قال :
((ولكني لدغت)) يعني الذي كنت بسببه مستيقظاً تلك اللحظة أنني لدغت ؛ أي لدغني عقرب ، وهو متأذي متألم بسببها ، فكان مستيقظاً من الأذى الذي ناله بسم تلك العقرب ((ولكني لدغت)) .

أيضاً سؤال يطرح نفسه والحديث يجزُّ بعضه ، قال له سعيد : ((فما صنعت؟)) ؛ ما الذي عملته لمداواة نفسه ومعالجتها من هذه اللدغة ؟

((قال: ارتقيت)) وفي بعض الروايات «استرقيت» أي طلبت من أحد أن يرقيني . وظاهر السياق أن الذي فعله هو الاسترقاء؛ أي طلب من أحد أن يرقيه .

((قال: فما حملك على ذلك؟)) سؤال عن الدليل ، وهذا فيه عناية السلف رحمهم الله بالدليل وعنايتهم به وبحثهم عنه وتحريهم له . قال ((ما حملك على ذلك)) : أي ما الدليل الذي استندت عليه عندما استرقيت أو ارتقيت؟

قال : ((حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم؟)) أروي لنا الحديث ، أخبرنا به .

قال : ((حدثنا عن بريدة بن الحُصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حُمة)) ؛ العين معروفة، أي عندما يصاب الإنسان بمرض أو آفة أو نحو ذلك بسبب العين ، يكون أحدُ أصابه بعينه وقد قال عليه الصلاة والسلام ((العين حق)) . والحمة : هي لغة ذوات السموم . الحمة: أي كون الإنسان أصيب بلدغة ذوات السموم فارتقى استناداً إلى هذا الحديث . إذاً هو عمل بعلم بحجة ؛ ولهذا أثنى عليه سعيد ابن جبير فيما صنع .

قال : ((قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)) يقول له قد أحسنت . الإحسان هنا منبني على أمرين أفادهما كلام سعيد: سماع العلم ، والعمل به ، لأن من سمع العلم ولم يعمل به مسيء ، ومن عمل بدون علم مسيء ، والمحسن هو من علم وعمل؛ من عمل بعلم ، أما من عمل بلا علم ، أو علم ولم يعمل؛ كل منهما مسيء . فمدحه وأثنى عليه قال ((قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)) أي أنك عملت بدليل فأحسنت صنعاً .

قال : ((قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم)) وساق الحديث وفيه ((لا يسترقون)) ؛ هل ساق هذا الحديث وفيه هذه اللفظة ((لا يسترقون)) تخطئة له في صنيعه ؟ الجواب لا ، لأنه لو كان يخطئه في صنيعه لم يقل له ((قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)) .

إذاً لماذا ساق هذا الحديث وقال «ولكن حدثنا» ؟ أراد أن يبين له درجةً أكمل ومنزلةً أعلى من هذا الذي فعله ، هو استرقى ، والاسترقاء جائز ليس محرماً ، لكنه خلاف الأولى . الاسترقاء : أن يطلب الإنسان المريض من غيره أن يرقيه؛ هذا جائز ، يجوز للإنسان أن يقول لشخص فاضل أنا متعب اقرأ عليّ ، لا بأس بذلك ليس بحرام لكنه خلاف الأولى . فإذاً سعيد عندما قال له ((أحسن من انتهى إلى ما قد سمع)) وساق له حديث ابن عباس أراد أن يبين له الأفضل . وانظر أيضاً بيانه له الأفضل بهذا الأسلوب الرفيع من البيان ، حتى إنه لم يقل له الذي فعلته أنت خلاف الأولى قال «أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن» ، وهذا كله من جمال البيان وكمال الأدب واللفظ من هؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى .

قال : ((ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عرضت عليّ الأمم)) المراد بالأمم : أمم الأنبياء . أي وقت كان هذا العرض؟ الله أعلم . وعرض الأمم عليه -عليه الصلاة والسلام- كما بين أهل العلم أي أمثالها ، فعرضت عليه أمم الأنبياء .

قال: ((فرأيت النبي ومعه الرهط)) والرهط: هم العدد دون العشرة ، نبي مضى حياته في دعوة قومه فكان من استجاب له أقل من عشرة .

((والنبي ومعه الرجل والرجلان)) يأتي بعض الأنبياء يوم القيامة أمضى حياته في بعثته دعوةً إلى الله فلم يستجب له إلا رجل واحد أو لم يستجب له إلا رجلا .

وأعظم من ذلك ((والنبي وليس معه أحد)) ؛ يُبعث ولم يتبعه أحد من قومه ، بل بعض الأنبياء قتلهم أقوامهم .
فيأتي النبي ومعه الرجل ومعه الرجلان والنبي وليس معه أحد .

((إذ رُفع لي سواد عظيم فظننتُ أنهم أمتي)) سواد رآه في الأفق لا يرى أشخاصهم ، ولهذا لم يميّز فظنهم عليه الصلاة والسلام أمته .

((فقيل لي : هذا موسى وقومه)) هذا يفيد أن موسى عليه السلام من أكثر الأنبياء تابعاً بعد نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال ((فنظرت فإذا سواد عظيم)) جاء في بعض الروايات «قد سد الأفق» ((فقيل : هذه أمتك)) فهو عليه الصلاة والسلام أكثر الأنبياء تابعاً ؛ صلوات الله وسلامه عليه .

((ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)) وهذا موضع الشاهد للترجمة «دخل الجنة بدون حساب» أي ولا عذاب ؛ ومعهم سبعون ألف يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب . وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((فاستزدتُ ربي فزاني مع كل ألفٍ سبعون ألف)) ، وجاء في بعض الروايات ((مع كل واحد سبعون ألف)) ، لما قيل له معهم سبعون ألف قال استزدت ربي طلبت من ربي الزيادة؛ الله أكبر!!
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال جل وعلا: ﴿النَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أي أحرص على نفسك منك صلوات الله وسلامه عليه وأولى بنفسك منك ؛ ولهذا وجب أن تتبعه وتطيعه وتقدم طاعته على طاعة نفسك ومحبه على محبة نفسك حقاً لا ادعاءً ، المحبة المثمرة لاتباعه صلوات الله وسلامه عليه .

أما تلك المحبة المثمرة للبدع فلا تجدي لأهلها شيئاً ، المحبة النافعة التي تثمر اتباع للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] . أما شخص يزعم أنه يحب النبي عليه الصلاة والسلام ثم يسهر الليل مع الطبل والأناشيد وينام عن صلاة الفجر !! فريضة يتركها والبدعة لا يفوّتها!! أين المحبة الحقيقية الصادقة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؟! ((فاستزدت ربي فزادني)) هكذا جاء في بعض الروايات .

قال : ((ثم نهض)) أي النبي عليه الصلاة والسلام ((فدخل منزله)) ؛ كانوا في مسجده هذا صلوات الله وسلامه عليه فدخل منزله .

((فخاض الناس في أولئك)) الناس : أي الصحابة ؛ من كانوا حاضرين ذلك المجلس قد سمعوا قول النبي عليه الصلاة والسلام خاضوا في أولئك .

((فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً)) ؛ هذا فيه كمال علم السلف من حيث أنهم أيقنوا أن هؤلاء فازوا بهذه الرتبة العلية بالعمل ، لكن ما هذا العمل ما نوعه ما صفته ؟ بدأوا كلُّ يجتهد ويتحرى ؛ فبعضهم قال : لعلهم الذين صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ، وبعضهم قال : لعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً .

قال : ((وذكروا أشياء)) أي ذكروا احتمالات . أخذ منه أهل العلم أن مثل هذا الصنيع لا بأس به إن كان على وجه التحري واحتمالات ، لا يجزم أنَّ هذا هو القول الحق والفهم الصائب وإنما يقول احتمال أنه كذا أو يقول لعله كذا ، والآخر يقول لعله كذا ، لكن لا يجزم ، على سبيل التفكير والتأمل والاجتهاد في معرفة المعنى .

قال : ((فخرج عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه)) أخبروه بالذي دار بينهم من اجتهادات ؛ بعضنا قال كذا وبعضنا قال كذا ، أخبروه بما دار بينهم .

فقال : ((هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون)) ؛ أربع صفات ذكرها عليه الصلاة والسلام لأولئك الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب . اللهم يا ربنا يا كريم يا منان يا عظيم فضلاً منك وكرماً نسألك أن تجعلنا أجمعين ممن يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب . اللهم منَّ علينا يا ربنا وتفضل علينا بأن نكون ممن يدخل الجنة بدون حساب ووالدنا وأولادنا وأزواجنا وذرياتنا يا رب العالمين .

قال : ((هم الذين لا يسترقون)) وهذا موضع الشاهد من سياق سعيد بن جبیر لهذا الخبر ((لا يسترقون)) ، نقلاً لحصين إلى الأولى والأفضل . حصين استرقى ، والأولى عدم الاسترقاء ، فقوله ((لا يسترقون)) أي لا يطلبون الرقية من غيرهم ، لا يطلبون من أحد أن يرقيه ، لأن المسترقي سائل وطالب وملتفت إلى إنسانٍ آخر ، فذكر من صفاتهم لا يسترقون يعني لا يطلب من غيره أن يرقيه ، وهذا ولئن كان جائزاً كما دلت عليه الرواية السابقة إلا أنه خلاف الأولى ، فالأولى في تكميل التوحيد وتتميمه أن لا يسترقي .

قال : ((ولا يكتون)) ؛ الكي جائز ليس بحرام ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((شفاء أمتي في ثلاث وذكر منها كية نار)) ، الكي فيه شفاء كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك وهو مباح لكنه أيضاً خلاف الأولى لما فيه من إيذاء للبدن بالنار عندما يُكوى جزء من البدن بها .

والاسترقاء جائز ولكنه خلاف الأولى ؛ دل على جوازه الرواية الأولى ، ودل على أنه خلاف الأولى الرواية الثانية التي ساقها سعيد بن جبیر رحمه الله تعالى .

وقوله ((لا يتطيرون)) التطير: هو التشاؤم سواء بالطير أو غيرها ، سواء بالطير أو بالأصوات أو بالأسماء أو بالحركات أو بالمنظر التي يشاهدها الإنسان . والتشاؤم الذي يضر الإنسان: هو ما أمضاه أو ردّه ؛ ما جعله يمضي في عمل أو يتوقف عن العمل تشاؤمًا ، إما أن يمضي في عمل ما أو في طريق ما ، أو يتوقف عن عمل ما بسبب التشاؤم . فمن صفات محققي التوحيد أنهم لا يتطيرون؛ أي لا يتشاءمون لا بطير ولا بأصوات ولا بحركات ولا بأعمال أو مشاهد يرونها أو غير ذلك ، لا يتطيرون .

((وعلى ربهم يتوكلون)) وهذا صفو صفاتهم وإليه يرجع ما سبق . «وعلى ربهم يتوكلون» : أي حققوا تمام التوكل على الله سبحانه وتعالى وكملوا هذا المقام العظيم ؛ التوكل على الله عز وجل في مصالحهم الدينية والدنيوية وشؤونهم كلها . يتوكلون على الله : أي يفوضون أمورهم كلها إلى الله ، منه جل وعلا يستمدون العون ويستمنحون التوفيق والتسديد.

((فقام عكاشة بن محصن)) رضي الله عنه وأرضاه بادر لما سمع هذه الأوصاف قال : ((ادع الله أن يجعلني منهم)) بادر وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام هذا الطلب قال : «ادع الله أن يجعلني منهم» .

((فقال عليه الصلاة والسلام : أنت منهم)) وهذا علم من أعلام النبوة ، قال «أنت منهم» : أي من هؤلاء السبعين الذين يدخلون الجنة بدون حساب ، فعكاشة ممن شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة ، وقد مات شهيدا في مقاتلة المرتدين مع خالد بن الوليد وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في قتالهم للمرتدين قُتل شهيدًا رضي الله عنه وأرضاه . فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: ((أنت منهم)).

((ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال: سبقك بها عكاشة)) ؛ لم يقل أنت منهم ولم يقل أيضا أنت لست منهم ، قال «سبقك بها عكاشة» وحسم هذا الأمر ، لأنه سيتوالى الطلب ، وقد يطلب من لا يكون مثلاً كذلك أو نحو ذلك ، فحسم الأمر عليه الصلاة والسلام فقال : ((سبقك بها عكاشة)) .

فهذا السياق أو هذا الخبر الشاهد منه : ما جاء من ذكرٍ لهذه الصفات العظيمة التي هي صفات محققي التوحيد الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب .

وأشرتُ في مقدمة الحديث أن هذا المجلس يبين لنا الصورة الجميلة التي كان عليها السلف في حوارهم ونقاشهم وأدبهم ، وأيضا ارتباطهم بالدليل ، وكنت كتبت مقالاً حول هذا الأثر سمّيته «مجلس ماتع من مجالس التابعين» ، ومن أرادته يجده بإذن الله تبارك وتعالى حول اللطائف التي يشتمل عليها هذا المجلس من ارتباط السلف بالدليل ، خلقهم الفاضل ، حوارهم اللطيف ، مناقشتهم الهادئة . وكم نحتاج نحن إلى أن نقف على مثل هذه الأخلاق العالية والأدب الرفيع حتى نتأدب بآداب هؤلاء رضي الله عنهم ورحمهم.

قال رحمه الله تعالى فيه مسائل ؛ الأولى : معرفة مراتب الناس في التوحيد .

أي أن أهل التوحيد ليسو فيه على رتبة واحدة بل هم متفاوتون ، ومراتبهم في التوحيد من حيث الجملة ثلاثة :
- المرتبة الأولى : من حقق التوحيد التحقيق المستحب ؛ إضافة إلى تحقيقه التحقيق الواجب حقق التوحيد التحقيق المستحب ؛ وهو درجة المقربين والسابقين بالخيرات .

- والمرتبة الثانية : من حقق التوحيد التحقيق الواجب ؛ وهذه درجة المقتصدين .
- والمرتبة الثالثة : درجة من ظلم نفسه بأمور وأعمال لا تقدر في التوحيد من أصله ولكن تقدر في كماله الواجب ؛ فظلم نفسه بذلك .

فإذاً من حيث الإجمال أهل التوحيد على ثلاثة مراتب ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ [فاطر: ٣٢] .

الثانية : ما معنى تحقيقه .

معناها سبق أن مر معنا ؛ أي : تصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، وأيضاً مر بيان ما يتعلق بهذه الأمور الثلاث وأنها معوقات للفوز بثواب تحقيق التوحيد ، فهذه معوقات في طريق السائر إلى الله سبحانه وتعالى الذي يطلب ثواب الله والدار الآخرة ، فتحقيق التوحيد: تصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ؛ وهذا التحقيق الواجب ، أما التحقيق المستحب: فهو أن يضيف إلى ذلك مجاهدة نفسه المجاهدة التي يبلغ بها درجة المحسنين ؛ أن يعبد الله كأنه يرى الله .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين .

ثناؤه على إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام بكونه لم يك من المشركين في قوله : ﴿ إِنِ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، ومعنى لم يكن من المشركين : أي براءته من الشرك وبراءته من أهله وبُعده عنه ، ومر أيضاً معنا قول الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمُهُمْ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَهُمْ كَفَرُوا كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] .

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .

وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ؛ فهذا فيه ثناء على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ فهذا فيه بُعدهم عن الشرك وبراءتهم منه ومن أهله .

الخامسة : كَوْنُ تَرْكِ الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر أوصاف الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب قال: ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتون)) ؛ فَعُلِمَ من ذلك أن كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد ، والمراد ترك الرقية : أي الاسترقاء ، «لا يسترقون» أي لا يطلب من غيره أن يرقيه . وذلك كما سبق البيان أن في الاسترقاء طلب وسؤال والتفات بالقلب إلى الغير ، والاكتواء فيه إيذاء للبدن بالنار ؛ فهؤلاء من تمام توكلهم تركوا الاسترقاء وتركوا أيضاً الاكتواء مع أن كلاهما جائز ؛ الاسترقاء جائز والاكتواء جائز .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .

كون الجامع لتلك الخصال أي ترك الاسترقاء وترك الاكتواء وترك التطير الجامع لذلك كله هو التوكل ؛ لأنه قال في تمام ذلك : ((وعلى ربهم يتوكلون)) أي أنهم لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون لكمال توكلهم على الله .

السابعة : عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

السابعة : عمق علم الصحابة ؛ وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم أن في أمته سبعون ألف يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب ثم مضى ودخل بيته عليه الصلاة والسلام خاضوا فيهم ، فقال بعضهم : لعلمهم الذين صحبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : لعلمهم الذين وُلِدُوا في الإسلام ، وذكروا أشياء أي من هذا القبيل ، فتركزت هذه المعاني أو التقريرات التي ذكروها أو الاحتمالات التي ذكروها تركزت على العمل ؛ فهذا يدل على عمق علم الصحابة أخذوا ينظرون في أعمال كبيرة جداً من أعمال الإسلام؛ إما الصحبة ، أو أنه ولد على الإسلام نشأ من ولادته مسلماً أو نحو ذلك ، فهذا فيه دلالة على عمق علم الصحابة حيث إن جميع ما قالوه فيه أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

الثامنة : حرصهم على الخير .

لأنهم أخذوا يبحثون في هذه الصفات حرصاً على الخير ، ليس من باب الفضول أو مجرد المعرفة ، وإنما أرادوا أن يعرفوا هذه الصفات وأن يتوصلوا إليها حرصاً منهم رضي الله عنهم وأرضاهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية .

فضيلة هذه الأمة بالكمية أي العدد ؛ حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام رأى سواداً عظيماً قد سدَّ الأفق وقيل له إن فيهم سبعين ألف يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وأيضاً في الرواية الأخرى أنه استزاد الله سبحانه وتعالى فزاده مع كل ألف سبعون ألفاً ، وفي رواية مع كل واحد سبعون ألفاً ؛ فهذا فيه فضيلة هذه الأمة بالكمية أي بالعدد . وأيضاً بالكيفية أي الصفات ؛ هؤلاء السبعون ألف لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون هذه صفات عالية وجليلة . فإذاً فيه فضيلة هذه الأمة أمة محمد عليه الصلاة والسلام بالكمية والكيفية .

العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .

فضيلة أصحاب موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أتباعه كثر ، والنبي عليه الصلاة والسلام في أول الأمر لما رأى سواداً عظيماً ظنهم أمته ، فهذا فيه فضيلة أصحاب موسى عليه السلام .

الحادية عشرة : عرض الأمم عليه ، عليه الصلاة والسلام .

وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ)) أي أُمَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وعرفنا أن المراد بعرض الأمم أي عرض مثالها .

الراجع هل هو رؤية أو كان في الإسراء ؟

الله تعالى أعلم هذا العرض الذي ذُكر في الحديث متى كان وكيف كان ؟ هذا الله تعالى أعلم به ، لكن قرر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن هذا العرض عرضٌ لمثال هذه الأمم .

الثانية عشرة : أن كل أمةٍ تُحْشَرُ وحدها مع نبيها .

يعني لا تكون أُمَمُ الْأَنْبِيَاءِ مختلطة بل كل أمة تُحْشَرُ مع نبيها ، وهذا مستفاد من الحديث ((يَأْتِي النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ)) فهذا يفيد أن كل أمة تُحْشَرُ وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة : قلة من استجاب للأنبياء .

لأنه مر في الحديث ((يأتي النبي ومعه الرهط)) ؛ الرهط عدد أقل من العشرة ، ((ويأتي النبي ومعه الرجل)) رجل واحد فقط ! مضى السنوات الطوال يدعو قومه وبذل وسعه وجهده في دعوة قومه وبلغ البلاغ المبين وما ترك خيراً إلا دلهم عليه ولا شراً إلا حذرهم منه ولم يؤمن إلا واحد !! أو لم يؤمن به إلا اثنان !! ((يأتي النبي ومع الرجل ويأتي النبي ومعه الرجلان)) بل يأتي النبي وليس معه أحد ؛ وهذا فيه قلة من استجاب للأنبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبه أحد يأتي وحده .

أي أن النبي الذي لم يستجب له أحد من قومه إطلاقاً يأتي يوم القيامة وحده ، لأن كل نبي يأتي ومعه أمتة ، وكل أمة تحشر وحدها مع نبيها ، فالنبي الذي ليس له تابع يأتي يوم القيامة وحده لم يتبعه أحد من قومه .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة ، وعدم الزهد في القلة .

ثمرة هذا العلم عندما تقف على هذا الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام؛ أن النبي يأتي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي وليس معه أحد ؛ ثمرة هذا العلم والمعرفة بهذا الأمر عدم الاغترار بالكثرة ، لو كانت العبرة بالكثرة أو لو كان المقياس الكثرة كيف يقال ؟ هل يُحكم بأن الأحق مع الكثرة ؟ وإن كانت هي ميزان رائج في الأزمنة المتأخرة ، يعدّ الأصح أو الأقوم أو الأفضل أو الأرجح الأكثر أصواتاً ، والتصويت وما أدراك ما التصويت الأكثر أصواتاً هو الأصح وهو الأحق وهو الأولى فصار المقياس الكثرة !! الله جل وعلا قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا .

فإذاً من ثمرة هذا العلم عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة ؛ يعني لو كان صاحب الحق واحد أو لم يتبعه على الحق إلا شخص أو شخصان أو ثلاثة هذا ليس دليلاً على أنه ليس صاحب حق ، ما يصح أن يقال هذا ليس صاحب حق لأنه لو كان صاحب حق لرأيت معه أتباع ، يقول لك بعض الجهال ما يمكن يكون هذا صاحب حق ما عنده إلا شخص واحد! ما عنده إلا شخصان أو ثلاثة! وهل هؤلاء كلهم على باطل وهو وحده على حق !! هكذا يتكلم بعض الناس في مثل هذا المقام . فإذاً المقياس ليس القلة والكثرة ، المقياس: موافقة الحق وإصابة الحق ولو كان الإنسان وحده ، ولهذا من أصاب الحق ولو كان وحده لا يستوحش ، وأيضاً إذا رأى الناس على باطل وعلى ضلال لا يغتر ، لا يقول أكثر الناس يعملون كذا وأنا واحد منهم ، لا يغتر بالكثرة ؛ هذا مقياس خاطئ لدى كثير من الناس ، ولهذا نبّه المصنف رحمه الله هذا التنبيه اللطيف قال : «عدم الاغترار بالكثرة

وعدم الزهد في القلة» ؛ عدم الزهد في القلة يعني إذا كان الإنسان صاحب حق ومعه اثنان أو ثلاثة لا يصح أن يُزهد به لأن أتباعه قلة .

السادسة عشرة : الرخصة في الرقية من العين والحمة .

لأنه جاء في الحديث الذي مر معنا ((لا رقية إلا من عين أو حمة)) والعين : كون الإنسان أصيب في بدنه أو بمرض أو نحو ذلك بسبب العين ، والعين حق كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام . والحمة : لدغة ذوات السموم . والحديث لا يفيد حصر الرقية في هذين ، ولكن فيه أن الرقية من العين والحمة نافعة نفعاً عظيماً ؛ لا رقية أنفع أو أجدى أو نحو ذلك إلا من عينٍ أو حمة ، لا أن الرقية من أمرٍ آخر لا تجوز .

السابعة عشرة : عمق علم السلف لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا . فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .

عمق علم السلف لقوله - أي سعيد ابن جبير - : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا . وساق الحديث الذي فيه ((لا يسترقون)) ؛ فعلم أن الحديث الأول ((لا رقية إلا من عين أو حمة)) لا يخالف الحديث الثاني ((لا يسترقون)) ، لأن الحديث الأول فيه جواز الرقية وأيضاً يدل على جواز الاسترقاء ، والحديث الثاني يدل على أن الأولى عدم الاسترقاء ، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .

الثامنة عشرة : بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه .

لأن حصين بن عبد الرحمن رحمه الله قال : «أما إني لم أكن في صلاة» ؛ فهذا فيه بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه ، سواء في ذلك مدح نفسه أو مدح غيره ، فهذا أمرُ السلف في بُعد عنه ، لا يمدح الإنسان نفسه بما ليس فيه من صفات ، وأيضاً لا يمدح الآخرين لا يمدح شخصاً بصفاتٍ ليست فيه ، بخلاف من يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، فالسلف في تمام البُعد عن مدح الإنسان بما ليس فيه .

التاسعة عشرة : قوله : « أنت منهم » علمٌ من أعلام النبوة .

قوله أي الرسول صلى الله عليه وسلم : ((أنت منهم)) أي عكاشة لما قال «ادع الله أن يجعلني منهم» قال عليه الصلاة والسلام ((أنت منهم)) هذا علمٌ من أعلام النبوة ؛ وذلك لأن عكاشة قُتل شهيداً في سبيل الله في قتال المرتدين مع جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه ؛ فهذا علمٌ من أعلام النبوة .

العشرون : فضيلة عكاشة .

فضيلة عكاشة بن محصن رضي الله عنه ؛ لأن هذه شهادة له بالجنة ، شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة؛ قال : ((أنت منهم)) أي من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب .

الحادية والعشرون : استعمال المعارض .

استعمال المعارض لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما قال له رجل آخر «ادع الله أن يجعلني منهم» قال : ((سبقك بها عكاشة)) ؛ فهذا فيه استعمال المعارض .

الثانية والعشرون : حسن خلقه صلى الله عليه وسلم .

لأنه لم يقل لست منهم أو أنت منهم فيستمر الأمر إلى أن يصل إلى مثلاً رجل ليس أهلاً لذلك فيقول له لست منهم ؛ فهذا حُسن خلقه عليه الصلاة والسلام حَسَم الأمر بهذه الكلمة اللطيفة الجميلة حيث قال عليه الصلاة والسلام : ((سبقك بها عكاشة)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .